أبو الحسن علي الحسني الندوي

حكمة الدعوة وصفة الدعاة

ملتزم النشر و التوزيع
المجمع الاسلامى العلمى ، ندوة العلماء
ص . ب - ١١٩ - لكناؤ (الهند)

من مطبوعات المجمع الاسلامى العلمى رقم : ٢٢٢

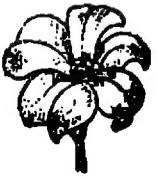

الطبعـــة الجديدة

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩ م

المطبعة النـــدوية

ندوة العلمـاء ـ لكهنؤ (الهنـــد)

بين يدى المحاضرة

ألقيت هذه المحاضرة القيمة المثيرة بتاريخ ١٧ / ٤/ ١٤٠٠هـ في قاعة المحاضرات بالجامعة الاسلامية فى المدينة المنورة - على صاحبها الصلاة و السلام - على طلب من طلاب الجامعة الذين أحبوا صاحبها الداعية المجاهد سماحة الشيخ السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى و طال عهدهم بسماع محاضرته ، و تقدموا بالطلب إلى مسئولى الجامعة الذين شاركوهم فى الشعور و رحبوا به ، و أعلن عن المحاضرة فانتشر خبرها بسرعة فى أرجاء الجامعة ، و كان الاجتماع حاشداً ، يضم الطلاب و الأساتذة و مسئولى الجامعة ، و اكتظت القاعة حتى ما بقى فيها موضع إنسان ، ورأس الحفل نائب رئيس الجامعة معالى الدكتور الشيخ عبد الله الزايد .

بدىء الحفل بتلاوة هذه الآيات الكريمات « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً . . إلى آخر الآيات » فكانت خير افتتاح ، تناسب موضوع المحاضرة الذى هو « حكمة الدعوة وصفة الدعاة » . وخيم الهدوء و السكينة على الحضور ، و استمعوا إلى

المحاضرة بشوق و إعجاب ، و ما انتهت المحاضرة إلا و قد رقت القلوب وهملت الدموع من بعض العيون ، و تمنى الداعية المحاضر أن ينقش كلمة سيدنا أبى بكرالصديق ـ رضى الله عنه ـ « أينقص الدين وأناحى ؟ » على صدر كل طالب وشاب مسلم ، و قد نقشها فعلا ، فكانت هى خلاصة المحاضرة ، و رائد الحفل ، فجزاه الله عن الاسلام و المسلمين خير الجزاء .

و قد سجل المحاضرة عدد كبير من الطلاب ، و قام الأخ محمد رضوان الندوى الطالب بالجامعة الاسلامية بنسخها من الشريط .

ويسعدنا أن ننشر هذه الكلمة المرققة الرائعة بعد أن تناولها قلم الداعية المحاضر بالتهذيب و التنقيح ، لتصل إلى أكبر عـــدد ممكن من الشباب المسلم ، و تنتشر هـــذه الكلمة الرائدة ، و تظل غاية الحيـاة :

« أينقص الدين و أناحى » و الله من وراء القصـد و هو الهـادى إلى سواء السبيل .

النـاشر

بسم الله الرحمن الرحيم

حكمة الدعوة و صفة الدعاة

حمـــد الله و أثنى عليـــه ثم قال :

صاحب السعادة نائب رئيس الجامعـــة و زملائى الأساتذة و المربين و أبنـائى الطلبة المجـــدين !

إن من الأمثال السائرة فى الأدب الأجنبى أن هنالك شيئين لا يخضعان لقانون مرسوم ولحدود معينة ، وهما الحب و الحرب ، أما الحب فأتركه للأدباء و الشعراء يبحثون فيـــه ، و أما الحرب فلا شأن لى بها ، ولكنى أعدل عن هذا المثل الأجنبى الذى لاينم عن روح إسلامية و تفكير إسلامى ، أعدل عنـه إلى مثل آخر و إلى أصل من الأصول ، وهو أن التربية و الدعوة لا تخضعان لقانون مرسوم ، فان التربية نظام معين خاص ، إننى أستهين ـ و أنا أثير هذه النقطـة ـ بقيمة المكتبة العظيمة التى ألفت فى فن التربية ، ولا أستهين بجهود المربين المطلعين على التجارب العملية

و المناهج التربوية العالمية ، و لكنى قلت فى مناسبة فى حديث كنت أتحدث به فى إحدى كليات التربية فى بلد عربى كبير : إننى أعتقد أن المعلم لا يكون معلماً حتى يكون ملهماً ، و كذلك أقول ، و لا أطلق كلمة الالهام بمعنى المصطلح الشرعى ، و لكن التربية هى التى تفتق القريحة و تشعل المواهب ، و تلهم المعانى البعيدة إذا سنحت لها مناسبة ، وكذلك الدعوة لايمكن أن تخضع لقانون خشيب مرسوم معين ، وضعه البشر أو وضعه رجال الدعوة ، إن من يخضع الدعوة أو الدعاة لقانون مرسوم أو لقائمة من رؤوس الأقلام أو من الغايات ربما يصطدم بتجربة قاسية .

عندنا حكاية لا بأس أن نحكيها أمامكم : إن رجلا استخدم خادماً ، وكان هذا الخادم ذكياً طلب من السيد أن يضع له قائمة الواجبات ، ما هى الواجبات التى أكلف بها ، فوضع له قائمة : تعمل كذا فى الوقت الفلانى ، وتعمل كذا ، وتذهب إلى السوق و تحضر لنا الحاجيات اليومية من لحوم و خضر ، و غير ذلك ، و تقوم بخدمة فلانية ، فأخذ هذه القائمة و احتفظ بها ، و مرة ركب هذا السيد جواداً ، و لكنه لسوء الحظ ارتبكت رجله فى

الركاب ، و أراد أن يتغلب على هذه المشكلة فلم ينجح ، و كان الخادم واقفاً ، فاستعان به وقال : أغثنى يا فلان فأخرج الورقة من جيبه ، و فتحها و مدها إليه و قال : أين فى هذه القائمة أن السيد إذا ارتبكت رجله بالركاب فانى أعينه ، و السيد يعانى مرحلة فاصلة بين الموت و الحياة يخشى عليه أن يسقط ، أو أن يتورط فى مرحلة أخرى ، و لكن هذا الخادم اعتمد على هذه القائمة وكان أميناً عليها ، مخلصاً لها ، مرتبطاً بها فأبى و رفض أن يعينه لأنه غير مكلف بهذه الخدمة .

فأخشى أننا إذا قيدنا و فسرنا الدعوة بتفكيرات عصرية أو تفكيرات عملية تقوم على التجربة وعلى طبيعة العصر ، و على طبيعة البيئة ، فاننا نجنى على الدعوة ، و نجنى على المجتمع .

و لكن الله ـ سبحانه و تعالى ـ قد حل هذه المشكلة ، وجاء القرآن المعجز ، الكتاب الخالد ، الكتاب الذى لا تبلى جدته فتوسط بين التفريط و الافراط و قال : ـ و إنى أحمد الله تعالى ـ على أن القارى اختار هذه الآية فى تلاوته ـ وهذه معجزة من المعجزات القرآنية التى لا تعد و لا تحصى ، والمعجزة

لا يستحضرها الانسان إلا إذا عاصرها و عاشها .

و لماوقع حادث وفاة الرسول - ﷺ - و غلب المسلمون على أمرهم ، فقد كثير منهم رشده ، و قف سيدنا عمر - رضى الله عنه - يقول : من قال : إن محمداً - ﷺ - قد مات فسأضرب عنقه ، فجاء سيدنا أبو بكر - رضى الله عنه - و تلا هذه الآية الكريمة :

« و ما محمد إلا رسول ، قد خلت من قبله الرسل » الآية .

هنالك ذاق المسلمون - و فيهم كبار الصحابة رضى الله عنهم - لذة هذه الآية ، و شهدوا روعتها و إعجازها ، و كأنما نزلت الآية الساعة ، و نحن لو قرأنا هذه الآية مئات من المرات لم نذق هذه اللذة ، و لم نشعر كما شعر الذين قد شهدوا هذا الحادث الفريد فى تاريخ الأمم و فى تاريخ الديانات .

و كذلك قوله تعالى :

« أدع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة و جادلهم بالتى هى أحسن » الآيه .

تستشعرون إعجاز القرآن فى قوله : « أدع إلى سبيل ربك »

وتشعرون بمدى أبعاد الاطلاق الذى جاء فى هذه الآية ، و أبعاد التقييد الذى جاء فيها فأطلق و قال : « إلى سبيل ربك » ماحدد و ما عين شيئاً معيناً خاصاً ، فمثلا تحثون على الصلاة ، تدعون الناس إلى مكارم الأخلاق، تدعون الناس إلى الفضيلة ، تدعون الناس إلى الشعور بكرامة الانسانية ، و « سبيل ربك » يحوى كل شئ ، إنه يمتد و يسع الآفاق ، ليست هذه الآفاق فقط ، إنها آفاق الحاجات الانسانية ، آفاق الحياة الانسانية ، فاستحضروا الاعجاز الكامل فى قوله تعالى : « ادع » و هو لا يختص بالخطابة ، و لا يختص بالكتابة ، و لا يختص بالوعظ و النصيحة إنما قال : « أدع » و الدعوة عامة تشمل هذه المعانى كلها ، و هذه الأساليب كلها ، ثم قال : « إلى سبيل ربك » و أى كلمة أوسع أفقاً ، وأوسع إطلاقاً ، من قوله ـ تعالى ـ : « إلى سبيل ربك » .

أعترف أمامكم أن الحكمة ـ الكلمة البليغة العربية التى جاءت فى الآية ـ لاأعتقد أنها من الممكن ترجمتها أونقلها إلى لغة أخرى ، و كذلك « الموعظة » كلمة مطلقة ، و الحسنة أيضاً كلمة مطلقة ، وهنا جاء القرآن يحل هذه المشكلة فأطلق و قيد ، وأوجز وأعجز ،

فقال : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة » الآية .

و لكن هناك نماذج من الدعوة الحكيمة ، نماذج رائعة خالدة على مر العصور ، و على مر التاريخ ، و على مدى تاريخ الدعوة ، جاءت فى القرآن ، و اختار منها نموذجاً جاء فى القرآن ونموذجاً جاء فى السيرة النبوية المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ .

من هذه النماذج تستطيعون أن تفسروا الدعوة ، وأن تطبقوها تطبيقاً عملياً ، و أن تستلهموا المعانى الدقيقة التى انطوى عليها هذا النموذج الرائع ، فأذكر ـ أولا ـ قصة دعوة سيدنا يوسف ـ عليه و على آبائه الصلاة و السلام ـ التى جاءت مفصلة فى سورة يوسف ، يقول ـ تبارك و تعالى ـ :

« أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

« و دخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما : إنى أرانى أعصر خمراً ، و قا لالآخر ، إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين » .

إخوانى ! استحضروا ـ أولا ـ الملابسات التى رافقت هذه

الدعوة ، و الجو الذى اكتنف هذه الدعوة ، لم تكن هذه الدعوة إلى الله بالأمر الميسور و بالأمر الهين ، إنها تنطلق فى جو رهيب مظلم ، قلق ، فى بيئة تقف سداً منيعاً ، أمام الغاية النبيلة الشريفة التى يتوخاها سيدنا يوسف عليه السلام ، إنه دخل السجن كرجل متهم بجناية شنيعة ، و موقف المتهم دائماً ، موقف ضعيف ، فهو لا يكون فى موقف الداعى الكريم المبجل الذى تجله القلوب ، و الداعى الوقور المحترم ، و هو وإن كان بريئاً من هذه الجناية كبراءة الذئب من دمه كما يقول المثل العربى ، و لكن الحادث كان قد وقع ، التهمة قد وجهت ، و المحكمة قد حكمت ، و شاع فى الناس أن يوسف قد ارتكب جريمة شنيعة ، إنه خان سيده فى أعز ما عنده ، وفى أكرم ما عنده ، هذا موقف ضعيف ، ولكن سيدنا يوسف لما دخل السجن لفت الأنظار ، وحل فى القلوب موقع الحبيب الأثير المفضل المكرم ، و كان ذلك من التخطيط الحكيم و تقدير العزيز العليم .

إن زميلين من زملاء السجن و إن لم يكونا زميلين له ، لأنه الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وأما هما فقد ارتكبا

جنايات خلقية ، و لكن على كل حال جمع بينه و بينهما سجن واحد ، و معتقل واحد ، رأى كل منهما رؤيا ، و ألهمهما الله - تعالى - كما أنهما عرفا بتجربتهما و فراستهما الانسانية - التى يكون لكل إنسان حظ منها - أن الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يفسر هذه الرؤيا هو يوسف ، هذا الذى دخل السجن جديداً ، و كانت تلوح على سيماه النجابة و النسب الرفيع و سيما الصالحين ، فجاءا إليه و حكى كل واحد منهما رؤياه :

« قال أحدهما : إنى أرانى أعصر خمراً ، و قال الآخر : إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه » الآية .

فالنقطة التى أريد أن أنبهكم عليها ، و ستكون هذه النقطة مدداً لكم ، و تقوم مقام مأة كتاب .

أن هذه الآيات تشتمل على نقطتين ترجعان إلى علم النفس - وعلم النفس عالمى بشرى - أولا : التأكيد لهما أن يوسف يستطيع أن يفسر النبأ الذى جاءا لأجله و قصداه ، و أنه لم يكن هذا القصد خطأ و أنهما ما ضلا السبيل ، إنهما

وصلا إلى غايتهما ، و هو الرجل المطلوب الذى يستطيع أن يرشدهما ، فان الأصل النفسى العميق أن صاحب الحاجة يريد أن تقضى حاجته فى أقرب وقت ، المريض إذا ذهب إلى طبيب يشخص المرض ويصف الدواء و الطبيب يماطله ، يقول : سأراجع الكتب من المصادر الطبية ، وسأراجع فلاناً وفلاناً فى البلد ثم أحاول أن أعالجك ، و المريض المسكين يتألم قلبه ، وينقطع أمله ، و يرجع خائباً وربما لا يرجع إليه بعد ذلك .

فالشئ الأول أن يثير الانسان الثقة فى ذلك الرجل الذى ساقته الحاجة إليه ، و يقنعه بأن علاجه عنده ، و أن طلبته و حاجته ستقضى عنده ، فقال :

« لايأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل ان يأتيكما » الآية .

يعنى أن حاجتهما ستقضى سريعاً ، لأنهما كانا فى السجن مرتبطين بقوانين السجون و المعتقلات ، فما كان لهما أن يجلسا بجواره - طويلا - فأراد أن يطمئنهما أن حاجتهما ستقضى سريعاً ، فقال « لايأتيكما طعام ترزقانه

إلا نبأتكما » ، الآية ، وهنالك تفسيران للآية :

١ — التفسير الأول : أن سيدنا يوسف عليه السلام قال : « لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله » أى تأويل هذا الطعام يعنى حقيقة هذا الطعام ، فانه أراد أن يوجد الثقة فيهما عن طريق إظهار قدرته على التنبؤ بشئ لم يره فاستعان به على إيجاد الثقة فى نفوسهما .

و أنا لا استسيغ هذا التأويل ، أولا لأنه إخبار بالغيب ، ثم إن السجون ليس هنالك تنوع كبير فى الأطعمة ، فباستطاعته - بكل سهولة - أن يخبرهما بنوع الطعام الذى سيحضر ، فأى ألمعية لسيدنا يوسف عليه السلام و أى براعة له فى الاشعار بنوع الطعام الذى سيحضر ، و جاء فى التوراة أن سيدنا يوسف عليه السلام ، كان مشرفا على المطعم ، إن صح هذا فانه لا غرابة لمشرف المطعم فى أن يخبر ، أى نوع من الطعام سيحضر ، فأنا أميل إلى التفسير الثانى الذى ورد فى بعض كتب التفسير ، و هو أنه لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويل هذه الرؤيا حتى يطمئنا أنهما لا يحتاجان إلى جلوس

طويل ، ولايملان و لا يأتى السجان فيقول : اذهبا إلى مكانكما ، و من الذى أذن لكما بالحضور هنا ، فقال : « لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما » .

و كانت مصر على جانب كبير من الحضارة ، وتنظيم الحياة المدنيـــة ، فالمفروض أنه كانت هناك مواعيد مضبوطة للطعام ، و كان وقت الطعام قد حضر فلذلك قال : « لايأتيكما طعام » الآية .

ثم هنا نكتة حضرت لى الآن ، وهى أن بين المسجونين وبين الطعام الذى يأكلونه فى السجن صلة قوية فلما ذكر الطعام أثار فيهم الشوق ، وانتعشت قلوبهم بسماع ذكر الطعام ، فالطعام حبيب إلى كل إنسان ، و لكنـــه إلى المسجون أحب وألذ وأشهى ، فلما ذكره يوسف انتعشت نفوسهما ، و تهيأت آذانهما فقال : « لايأتيكما طعام ترزقانه » . . الآية ، ثم تثور فيـه الطبيعة النبوية ، فلا يرد الفضل فى ذلك إلى ذكائه ، و لا إلى براعته ، بل يرد الفضل إلى الله ، و من هنـا ينتقل انتقالا حكيماً قلمـا يوجـد له نظير ، فقال : « ذلكما مما علمنى ربى » . فكان المدخل الكريم إلى النصيحة التى يريدها ، و انظروا : كيف ينتقل

من تفسير الرؤيا - قبل أن يفسرها إلى الدعوة الحكيمة ، وكان ذلك مما لا يسيغه ولا يتحمله هؤلاء المسجونون الذين ساقتهم الحاجة إليه ، وكانا قد فزعا بهذه الرؤيا المفزعة ، وجاءا فزعين مرتاعين ، فكيف يحتملان هذا الحديث الطويل ، فقال لهما بأنه لا يرجع الفضل إلى ذكائى و براعتى بل يرجع الفضل إلى الله - تعالى - و من هنا يدخل من هذا المدخل اللطيف الرقيق الخفيف على النفوس إلى الدعوة ، تستحضرون حكمته فى الدعوة ، أنه لم يكن يستطيع أن يقول : صبراً أيها الاخوان ، أيها الزملاء الكرام ! سأفسر لكم الرؤيا ، و لكن اسمعوا منى أولا أن هناك شيئاً أهم من هذا ، كيف كانوا ينشطون لسماع هذا الكلام ، و هذا الحديث الذى لم يتعودوه ، وما جاؤا لأجله فقال من غير انفصال طويل ، بل فى لحظة واحدة :

« ذلكما مما علمنى ربى » ، استحضروا الجو الذى وقعت فيه هذه الدعوة الحكيمة التى لا أعرف مثلها دعوة إلا دعوة الرسول - ﷺ - و سأعرض عليكم نموذجاً منها ، و لم أمر بأى نموذج من نماذج الدعوة فى تاريخ الدعوة و تاريخ

الدعاة أدق و أعمق منها حيث بدأ الحديث بقوله : « لا يأتيكما طعام ترزقانه . . » إلى أن قال . « ذلكما مما علمنى ربى » كيف انتقل إلى الحديث عن الرب و إلى التوحيد ، هل هنالك انتقال أخف و أرق وألطف وأسرع من هـذا الانتقال ؟ فكأنه يقول : ما كنت لأفسر لكم هذه الرؤيا ، وأنا الانسان الضعيف العاجز الذى لم أملك نفسى أمام هذا الأمر ، وأراد الناس أن يزجونى فى السجن فلم استطع أن أقاومهم ، و كيف يستطيع الانسان الضعيف العاجز الذى يساق إلى السجن فلا يملك شيئاً أن يصل إلى هذه القمة الشامخة من العلم بنفسه ، بل « ذلكما مما علمنى ربى » ، ثم أثار سؤالا آخر ، وهو لماذا علمنى ربى ؟ ومن هنا انتقل انتقالا آخر . إنها رحلة طويلة فى طريق الدعوة ، لكن سيدنا يوسف بحكمته و بروحانيته الشفافة ، و قلبه المشرق ، وبفكره النقى الربانى استطاع أن يطوى هذه الرحلة الطويلة التى قد يطويها الدعاة و الحكماء و الفلاسفة فى عدد من السنين ، استطاع أن يطويها فى لحظة واحدة فقال : « ذلكما مما علمنى ربى إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله و بالآخرة هم كافرون » .

هنالك شعر سيدنا يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه الآن في موقف قوى ، في موقف عال ، كأنه طلع جبلا ، أو ربوة عالية ، فقال : « يا صاحبي السجن أ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ » وكان لو قدم هذا قبل ذلك الكلام ، لكان كلاماً ثقيلا على آذانهما وعلى قلوبهما ، و لكن هنا استطاع أن يقول ، وحق له أن يقول : « ياصاحبي السجن أ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ » لاحظوا هذا التقديم و التأخير ، و لاحظوا هذا الترتيب القرآني ، الترتيب الحكيم ، وكان لواسمترفي الكلام ، كان الكلام ممجوجاً ، و لكنه شعر بقوة في نفسه ، و شعر بحسن استماع منهم لما كان يقرأ في و جوههم أنهم تهيأوا لاستماع هذا الصوت الذى يأتى من السماء ، لأنه دعوة الله للعبيد عن طريق الأنبياء والمرسلين ، فقال : « ياصاحبي السجن أ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ » اشعروا بالنبرة التى تختلف عن النبرة الأولى ، كانت النبرة الأولى رقيقة لطيفة خفيفة ، فجاءت هذه النبرة قوية متدفقة بالحياة ، متدفقة بالثقة ، وكان ذلك من أقرب الطرق إلى فهمهم أما لو استعان

بأشياء منطقية و كلامية لما كان لهم أن يفهموا منه ذلك .

ثم قال : « ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباءكم ما أنزل الله بها من سلطان » إنها أسماء من غير مسميات ، إنها أسماء لا حقيقة لها ، أسماء عند اليونان ، و أسماء عند البراهمة الوثنيين ، و أسماء عند غيرهم من أمثالهم ، إن الاعجاز القرآنى يكمن فى أنه أطلق عليه كلمة الأسماء ، إن الذى قرأ تاريخ الديانات و تاريخ الميثولوجيا يعرف إعجاز هذه الآية أنه ليس هناك إلا أسماء محضة ، أين الآلهة ؟ أين إله المطر ، وإله الحرب ؟ و أين إله الحب وإله الجمال ؟ أين هذه الآلهة ؟ التى لا وجود لها إلا فى الذهن وفى القائمة الخيالية ، « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم و آباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » و لا تزال هذه الآية معجزة إلى أن يرث الله الأرض و من عليها ، و ليست الوثنية إلا أسماء ، و قد فضح القرآن الوثنية بقوله : « إن هى إلا أسماء » .

وهنالك شعر سيدنا يوسف بأن الفراغ الذى وجد فى قلوبهم قد ملئ ، و ليس من الحكمة الآن أن يطيل الكلام ،

و يتوسع فى الحديث عن التوحيد ، و الطبيب النطاسى يعرف مقدار الوجبة من الدواء ، ومدى صلاحية المريض وحاجته ، فلا يزيد عليها ، إنها طريقة الداعى الملهم ، الداعى المؤيد من الله ، إنه يشعر أنه قد وصل إلى نقطة لا يجوز له أن يتخطاها ، و لأجل ذلك فان من يضع القوانين المحددة للدعوة أو التربية يخفى عليها ، على إطلاقها وحريتها وحيويتها ، و يخفى على الدعاة ، ولما شعر سيدنا يوسف أنه لاتتسع نفوسهم ولاتهيأ لسماع نصيحة أكثر من هذا وقف ، و بدأ يفسر الرؤيا .

و قد تجلى فى هذه القطعة القرآنية جمال يوسف ، الجمال الحقيقى ، الروحى ، و الجمال الفكرى و الجمال النبوى فى أروع مظاهره .

و لكن من الغريب أن هذه القطعة المعجزة قد تجردت عنها التوراة ، فقد قارنت بين قصة يوسف فى القرآن ، وقصة يوسف فى « Bible » فدهشت عند ما رأيت أن هذه القطعة التى هى من أجمل القطع الأدبية فضلا عن أنها من القطع الدينية لم ترد فى التوراة ، تجد فيها الأعداد و الأرقام و المساحة ،

كان الشئ الفلانى كذا من الأذرع و الأشبار ، و لكن تجرد العهد القديم (Bible) بطوله و عرضه عن هذه القطعة الجميلة ، و تعرض للتابوت أن كان كذا من الأمتار ، وأن لباسه كان كذا و كذا ، و أنه تشقق من هنا و هناك ، و لكن هذه القطعة التى تسحر النفوس و تلهم المعانى - التى لم تتعرض لها التوراة - تمثل نموذجاً رائعاً من نماذج الدعوة فى القرآن الحكيم .

و أذكر لكم نموذجاً رائعاً آخر :

إن رسول الله - ﷺ - لما وزع سبايا و مغانم حنين فى الجعرانة على أشراف قريش كما تعرفون و قرأتم فى السيرة ، أنه أعطى قريشاً فأجزل لهم العطاء ، أعطى أبا سفيان ، وعكرمة بن أبى جهل ، و فلانا و فلانا ، و كان نصيب الأنصار فيها قليلا ، اعتماداً على إيمانهم و على حبهم و صلتهم الدقيقة العميقة الدائمة بالاسلام و نبيه - عليه الصلاة و السلام - .

هناك تقاول بعض الشباب ، فقالوا : إن رسول الله - ﷺ - خص بنى قبيلته بأكبر نصيب من العطايا و المغانم ، و بلغ هذا رسول الله - ﷺ - فحسب له حساباً لأنه النبى

المربى و ليس النبي فقط ، فأمر بجمع الأنصار فى حظيرة فاجتمعوا ، و قال : لا يدخل الحظيرة إلا الأنصار ، و لما اجتمعوا كلهم قال لهم :

« ما هذه القالة التى بلغتنى عنكم ، وجدة وجدتموها على فى أنفسكم » .

فاستحيوا و قالوا : لا شئ يا رسول الله ، إنما هم بعض الشباب قد وسوس لهم الشيطان ، ثم قال : أما أتيتكم ضلالا فهداكم الله بى ، و عالة فأغناكم الله بى ، و أعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا لله ولرسوله المن و الفضل ! .

و لم يتبدر الرسول - ﷺ - بالكلام ، بل أراد أن يتكلم بلسانهم ، فأثار فيهم الشعور الانسانى و ألهمهم المعانى فقال : ألا تجيبونى يامعشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل ، قال : والله لو قلتم لصدقتم ولصدقتم ، أتيتنا مكذباً فصدقناك ، و مخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، و عائلا فواسيناك ؟ أى زعيم ، و أى قائد و أى مرب ، و أى صاحب فضل يستطيع أن يشهد على نفسه

بهذا ؟ والله لو لا أن هذه الكلمات قد وردت فى السيرة النبوية وفى حديث صحيح أصله فى الجامع الصحيح للبخارى ، و قد ذكره الحافظ ابن القيم فى « زاد المعادى بسياق أوسع وأشمل ، لولا أنها قد وردت فى الصحاح وفى كتب السيرة لما كان لأى مسلم أن ينطق لسانه بهذه الكلمات : « أما أتيتنا مكذباً فصدقناك ، و مخذولا فنصرناك ، و طريداً فآويناك » !

ثم قال بعد أن أثار نفوسهم وأجرى عيونهم ، وفتح الأغلاق من قلوبهم : « يا معشر الأنصار ! أ وجدتم على فى لعاعة من الدنيا ، تألفت بها قوماً ليسلموا و وكلتكم إلى إسلامكم ؟ » انظروا ، كيف أوجد فى نفوسهم الثقة التى كانت كفيلة بحسم كل ما ساور نفوسهم - إن كان هناك شئ قد ساور نفوسهم - وقال : « أوجدتم على فى لعاعة من الدنيا (واللعاعة : خضرة ناعمة) تألفت بها قوماً ليسلموا و وكلتكم إلى إسلامكم » ، ثم قال الكلمة المثيرة البليغة التى ما يمكن أن تطلق أو تنطلق من فم إلا و تفجر الأنهار و تشق الصخور ، و تأتى بالمعجزات .

« أما ترضون يا معشر الأنصار ! أن يذهب الناس بالشاء و البعير إلى رحالهم وترجعون برسول الله - ﷺ - إلى رحالكم ، و الله لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً و وادياً ، و سلكت الأنصار شعباً و وادياً لسلكت شعب الأنصار و واديها ، الأنصار شعار و الناس دثار ، أللهم ارحم الأنصار ، و أبناء الأنصار ، و أبناء أبناء الأنصار »

ويحلولى أن أقول و أردد هذا الكلام فى مدينة الأنصار :

« أللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » .

ثم ماذا كان ؟ كان الشئ المتوقع الطبيعى ، هملت عيونهم حتى اخضلت لحاهم ، و قالوا : رضينا برسول الله - ﷺ - قسمة و حظاً .

و الله لو بحثنا - ولى مشاركة فى بعض اللغات غير العربية فضلا عن لغتى الأردية - لو بحثنا فى أدب الأمم و الديانات ، ما وجدنا موعظة أبلغ من هذه الموعظة ، و علماً بالنفس الانسانى أكثر عمقاً و أكثر صدقاً من العلم النبوى .

هذان النموذجان من أروع النماذج التى دونت وسجلت فى الآداب البشرية و فى المكتبات الانسانية .

أيها الاخوان ! أقول لكم - و الوقت ضيق - إن الأشياء الكفيلة الضامنة بنجاح الدعوة إنما هى عوامل معدودة ، أستطيع أن ألخصها فى عاملين أساسيين :

أولهما : أن تملك الفكرة وتهيمن على مشاعر الداعى ، وإن يجرى منه مجرى الروح والدم ، وأن تمتزج بنفسه ، هنالك يكون الداعى هو الداعى الموفق الملهم المؤيد من الله الذى سيكتب له النصر ، و لا يكتب له أى إخفاق أو فشل .

فالشرط الأول أن لا تكون الدعوة صناعة أو حرفة أوفناً ، و أن لا تكون حذلقة و مجرد براعة فى الخطابة ، بل تكون عقيدة و فكرة ، و إيماناً يستحوذ على النفس الانسانية و يملأ جميع جوانب النفس حتى إذا أراد الانسان أن يتخلى عنها لم يستطع و لم يقدر ، هذا كان شأن سيدنا أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - يوم الردة ، هل تستحضرون الكلمة الخالدة التى نطق بها و التى غيرت مجرى التاريخ .

طلب منى أن ألقى الكلمـــة الأخيرة فى المؤتمر الآسيوى الاسلامى الأول فى كراتشى وأمامى نخبـــة من قادة الفكـــر الاسلامى ، و من قادة العالم الاسلامى ، فاستعنت بهذه الكلمة و قلت لهم ، ما هى تلك الكلمة التى ستكون رائدة هذا المؤتمر ، فيحملها الذين ينصرفون من هذا المؤتمر ، قلت لهم : إن الكلمة التى تحملونها من هنا هى الكلمة التى جرت على لســان أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - يوم الردة و منع الزكاة :

« أينقص الدين و أنا حى ؟ »

أنتم المسؤلون أمام الله يا إخوانى الطلبة ، يا أبنائى شباب المسلمين و العرب ! أنتم مسؤلون أمام الله ، درستم فى هـــذه الجامعة المباركة ، وأى مكان أقرب إلى مدرسة الرسول - ﷺ - و إلى صفـــة المسجد النبوى التى درس فيها كبـار الصحابة ، وحفظوا و وعوا أحاديث رسول الله - ﷺ - وتخرج منها مثل أبى هريرة راوية الحديث ووعاء من أوعية العلم ، أى جامعـــة أقرب إلى هذه المدرسة من هذه الجامعة ، إذن فمن أى جامعة نتوقع أن يخرج منها دعاة تملكهم الدعوة .

و الله لو استطعت أن أنقش هذه الكلمة على صدر كل واحد منكم لفعلت ، ياليتها كانت هذه الكلمة مكتوبة فى كل بيت على لوحة بقلم عريض : « أينقص الدين و أنا حى ؟ »

أما الشئ الثانى : فهو التجرد عن المطامع ، و الزهد فى الدنيا ، لا أعنى به زهداً نصرانياً و لا زهداً رهبانياً ، « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله » الآية .

و لا رهبانية فى الاسلام ، و لكن الدعوة تحتاج إلى شئ من سمو النفس وعلو الهمة والتجرد عن المطامع ، و الزهادة فى المناصب و الوظائف الكبيرة ، إن من توجهون إليهم الدعوة إذا علموا أنكم تنافسونهم فى ملكهم وفيما وسع الله به عليهم فانهم يشكون فى إخلاصكم ، و يكونون حرباً عليكم ، فأوضحوا لهم أنكم لستم طلاب ملك ولا منتجعى جاه و منصب ، و لا رواد ثروة و رخاء أو مدفوعين من شح و حرص .

قيل لشيخ الاسلام ابن تيمية : يقال : إنك تريد الملك ، فقال فى دهشة و قوة أنا أريد الملك ؟ ! و الله إن ملك التتار

لا يساوى عندى درهماً . و قـد كانت دولة التتار أكبر دولة و أكبر قوة على وجه الأرض فى ذلك الحين .

و إن أحـد المربين فى الهنـد الذى نفع الله به خلقاً كثيراً ، عرض عليه ملك دهلى مالا طائلا ، فقال له : لا شأن لى به ، قال : لا بد من أن تقبل شيئاً مما أعطانى الله ، فقال : إن الله ـ سبحانه و تعالى ـ يقول : « قل متاع الدنيا قليل » فاذا كانت الدنيا كلها قليلة : فقارة آسيا ـ طبعاً ـ أقل منها ، والهند أقل منها ، ثم دهلى أقل منها ، و أنت لا تملك إلا هذا فكيف ارزأك فى هذا الزهيد اليسير .

و أحكى لكم قصة وقعت فى دمشق ، كان الشيخ سعيد الحلبي من كبار الأساتذة و المربين فى القرن الماضى و كان ـ مرة ـ يلقى درساً فى جامع من جوامع دمشق فجاء إبراهيم باشا ـ الحاكم العام لسورية ، و إبراهيم باشا من تعرفونه فى القسوة و العنف ـ و دخل ووقف أمام الباب ، وكان الشيخ يشكو ألماً فى رجله ، وكان ماداً رجله إلى الأمام لأنه كان مستنداً إلى جدار المحراب و يلقى الدرس فكانت رجله إلى الباب ، فدخل

إبراهيم باشا و معه المحافظون العسكريون والشرطة ، فانتظر وتوقع أنه سيقبض رجله ، و لكنه لم يفعل ، و خاف أصحابه عليه من السيف ، وقبضوا ثيابهم لئلا يصيبها دم زكى ، دم عالم تقى ، وبقى إبرهيم باشا واقفاً ثم رجع و أرسل صرة من دنانير ذهبية مع أحد الخدم ، وقال : تقدم إلى سيدنا الشيخ سعيد الحلبي ، و تقول له : هذه هدية من إبراهيم باشا ، فلما جاء بها الخادم إليه قال كلمته البليغة الحكيمة التى هى أبلغ من ألف قصيدة ، قال قل لسيدك ، إن الذى يمد رجله لا يمد يده .

فالانسان مخير ، إما أن يمد رجله وإما أن يمد يده فاذا مد رجله لايسوغ له أن يمد يده ، لأنه تناقض .

و قد جبل الناس على حب من زهد فيما عندهم و البغض لمن ينافسهم فيما يحرصون عليه ، هذه هى الطبيعة البشرية منذ آلاف السنين ولا تزال ، فأنتم إذا أردتم أن تؤثروا فى نفوس من توجهون إليهم الدعوة فأوضحوا لهم أولا و اطمئنوهم أنكم لستم طلاب ملك و مال ، وطلاب رئاسة وجاه ، و طلاب

مناصب و وظائف ، إنما أنتم تفعلون ذلك شفقة عليهم ، ورقة بهم ، وعطفاً عليهم ، وخوفاً من أن يصيبهم مكروه .

أنا تلميذ صغير لتاريخ الاصلاح و التجديد ، وإن هواياتى و إن كانت متعددة ولكن تأتى فى مقدمتها هوايتى فى التاريخ ، و خاصة تاريخ الاصلاح و التجديد ، فما رأيت تجربة فى القرون الأخيرة - أعنى بعد القرن الثامن على الأقل - أنجح و أكثر توفيقا من تجربة الاصلاح و التجديد التى قام بها الشيخ أحمد السرهندى فى القارة الهندية ، و قد حكيت قصته فى الجزء الرابع من كتابى : « رجال الفكر و الدعوة » ستقرأون هذه القصة بالتفصيل .

تقرأون فيه أنه كيف استطاع الرجل الأعزل المجرد من كل سلاح والمجرد من كل ثروة مادية ، والمجرد من كل جيش ، أن يحول التيار فى الامبراطورية المغولية العظمى التى كانت فى الدرجة الثانية بعد الامبراطورية العثمانية الكبرى فى الشرق الأوسط ، و فى البلاد العربية والتركية ، إن هذه الامبراطورية

التى لم تكن إمبراطورية - بعد الامبراطورية العثمانية - أكبر منها مساحة ، وأكثر منها فتوحاً ونجاحا ، وكان على رأسها الملك القوى القاهر الذى اتسعت له الفتوحات الواسعة ، وهو جلال الدين أكبر ، وكان هذا الامبراطور نشأ فى قلبه عداء للاسلام و حقد عليه ، لأن من ينحرف عن الاسلام و يثور عليه أقبح و أشد من الذى نشأ فى الكفر ، كما حكيت لكم فى حديثى بالتفصيل فى محاضرتى بعنوان « عاصفة يواجهها العالم الاسلامى والعربى » فى هذه الجامعة نفسها ، ولأن الذى يخرج من النور إلى الظلام يكون أعمش و أقل إبصاراً من الذى نشأ فى الظلام ثم إنه يصاب بمركب النقص .

فكان الامبراطور جلال الدين ، نشأ فيه عداء شديد للاسلام ، و من الأمثلة على ذلك أنه ما كان يستطيع أحد فى بلاطه أن يسمى ابنه محمداً ، لأنه كان يكره هذا الاسم ، فترك الناس التسمية بهذا الاسم ، وكان من يذبح بقرة فى عهده يعاقب بالقتل ، و كان قد فتح الخمارات ، و شجع الناس على شرب الخمور و أكل لحم الخنزير ، و كان قد تأثر بالبرهمية و الوثنية

الهنـــدية ، كان يتجه بالمملكة إلى الطـابع الهنـــدى البرهمى و الفلسفـــة الهندية القديمـــة[1]

هنـاك قيض الله ـ تعالى شأنه ـ لمكافحـة هـذا التيـار ومقاومـة هذه الفتنـــة العظيمـــة الشيخ أحمـــد السرهندى (٩٧١ ـ ١٠٣٤ هـ) فجلس فى ركن من أركان بيته وبدأ يفكر فى شق الطريق لمكافحة هذا التيار ، فجعل يراسل الملك و أهل البلاط ، من الوزراء الكبـار ، و الأمراء العظام ، و يثير فيهم النخوة الاسلامية و الحميـــة الدينيـــة ويقول لهم : يا جمـاعة ! أنتم مسلمون وأولاد المسلمين ، وقـد شرفكم الله تعالى بنعمة الاسلام ، و رغم ذلك نرى أتبـاع محمد ﷺ ـ وهـو حبيب رب العالمين ـ أذلاء فى هذه البلاد التى فتحهـا المسلمون ، و أراقوا عليها أزكى دمائهم وصرفوا لهـا أفضل عبقريـاتهم ، وأحسن مواهبهم ، كيف تحتملون هـذا الوضع و كيف ترضون بذلك يا عباد الله ؟ .

صـار يثير فيهم كامن الايمـان ، ويحرك فيهم العرق

---

(١) راجع للتفصيل رسالة المؤلف « الدعوة الاسلامية فى الهند و تطوراتهـا » .

الاسلامى الذى لايخلو منـــه قلب أى مسلم ، وما زال يثير النخوة الاسلامية و يواصل العمل ، وبقى هكذا مـــدة طويلة يراسل و يكتب و يقابل حتى كسب عدداً من الأمراء فكانوا أنصاره و تلاميذه ، و مات جلال الدين أكبر و خلفه ابنـه نور الدين جهانكير و طلبـــه إلى بلاطه ، ولم يسجد له الشيخ تعظيماً كما كانت العادة فى البلاط ، فسجنه فبقى فى السجن سنتين ، ثم أمره بأن يبقى فى المعسكر ويرافقه لمـــدة ثلاث سنين فصبر على هذه الحالة وعرف جهـانكير أنه من طراز آخر و أنه عالم ربانى مخلص ، زاهد فى الدنيا ، محب للخير فأحبه و أجله و بدأ يهتم برفع شعائر الاسلام و بنـاء المساجد فى المناطق والقلاع التى كان يفتحها ، و احترام الاسلام والمسلمين .

و لم يزل يجرى اتصالاته بالأمراء المسلمين و كبـار الوزراء حتى كون مجموعـة مؤمنة ذات حمية دينيـــة فقلب التيار ، و غير مجرى التاريخ ، فكان جهانكير أفضل من أبيـه أكبر ، و كان ابنـه شاهجهان أفضل من أبيـه جهانكير ، و ممـا يدل على ذلك أنه لمـا صنع له « عرش الطاؤس » الذى صرف

عليه الملايين ، و تربع عليه نزل بعد هنيهة ، و قال : لقد كان فرعون سفيهاً ، إنه جلس على عرش آبنوس و ادعى الألوهية و قال : « أنا ربكم الأعلى » و لكنى أنا مسلم ، ثم سجد لله شكراً ، ثم جلس على العرش .

و خلفه أورنك زيب عالمكير ، ذلك الذى دون الفتاوى الهندية ، و طبق الأحكام الشرعية ، ونصب الجزية على الهندوس و كان من أفقه الملوك الذين عرفناهم فى العصور الأخيرة ، و من أغير الملوك على الاسلام ومن أكثر الناس حرصاً على اتباع السنة لا تفوته جمعة و لا جماعة ، و حفظ القرآن الكريم ، و جمع أربعين حديثاً و شرحها .

كل ذلك بجهود رجل واحد فقير أعزل ، و لكنه تملكته العقيدة ، و سيطرت عليه الفكرة و تشبثت به الغاية النبيلة ، حتى أصبح لا يملك نفسه و لا يقدر على التحول من موقفه ، و قد أثبت للملوك إنه لا يريد الملك ، و قال لهم : إذا صلحتم أنتم فأنتم أولى للحكم ، لا أشاطركم و لا أنافسكم فى ملككم ، و أدعو الله تعالى لكم بالتوفيق

و النجاح ، و خذوا أنتم الزمام بأيديكم ، وطبقوا الأحكام الشرعية و توجهوا بهذه البلاد إلى الاسلام

هذان عاملان أساسيان فى رجال الدعوة : أحدهما تملك الفكرة و سيطرتها على نفسه ، و الثانى : التجرد عن المطامع الدنيوية و الزهد فى المناصب و الملك .

واكتفى بذلك و أرجو أن يكون هذا بلاغاً للمستمعين النبهاء الأذكياء أبنائنا أبناء الجامعة الاسلامية ، وعسى الله أن ينفعنا جميعاً لما فيه خير الاسلام و المسلمين

و أعود فأقول لكم : إنه ينبغى أن تكون كلمتكم الرائدة :

« أينقص الدين و أنا حي ؟ »

و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .